إصدارات مدونة عيون المعرفة

http://knoweyes.blogspot.com

الطابع العلمي في قصص د/ مصطفى محمود

عبدالحفيظ العمري

(نُشر هذا المقال في صحيفة الجمهورية العدد رقم (١٣٤٤١) يوم ٢٠٠٦/٨/٣م)

عرفه المشاهد العربي من خلال برنامجه الشهير (العلم والإيمان) الذي اكتسح الشاشات العربية في وقت قصير وانطبعت صورته - أي د/ مصطفى محمود – في ذهن المواطن العربي بأنه العالم والمتحدث بلسان العلم دائما ، والخاصة منهم من يعرف د/ مصطفى محمود الأديب الذي بدأ حياته كاتبا للقصة القصيرة والمقال بأنواعه الاجتماعي والسياسي والفلسفي ومن ثم كاتبا للرواية والمسرحية وبعد ذلك أدب الرحلات سواء في الصحراء أو المدينة أو الغابة أو رحلته الشهيرة من الشك إلى الإيمان وهي رحلة نفسية لهذا الكاتب المبدع في ذاته الشخصية ناقلا لها من أغوار الشك والمجادلة إلى برد اليقين والتصوف العميق والعاقل وفي كل الأدوار تطل شخصية الأديب متعمقة في فلسفة متناهية وبساطة متواضعة لتقديم الحياة في أكمل صورها .. العلم سلاحه والكلمة مصباحه في هداية الساري في الطريق..

الانطلاق من التخصص

وإذ نتحدث عن القصة عند د/ مصطفى محمود فللتميز الذي عرف به هذا الأديب عن كل أقرانه من الأدباء المعاصرين وهذا التميز يكمن في علمية هذه الشخصية أو بالأصح الطابع العلمي الذي صاحب نمو هذه الشخصية مما لا نراه في أديب آخر فلم تكن العلمية ديدن يوسف إدريس ولا نجيب محفوظ – رغم علو كعب الأخير في الرواية – ولا آخرين كما هي لمصطفى محمود..
فمن لقب (المشرحتجي)الذي عرف به أيام ما كان طالبا في كلية الطب جامعة القاهرة لكثرة وقوفه على الجثث المتراصة في مشرحة الكلية باحثا عن سر الحياة (أثمر هذا الوقوف كتابين له هما سر الحياة وسر الموت) إلى برنامجه الشهير (العلم والإيمان) مرورا بتخصصه في الأمراض الصدرية والقلبية – كطبيب ممارس - هذا كله انطبع على أدبه فقصصه القصيرة غلب عليها طابع الطب إما أن يكون المؤلف هو المتحدث بلسان البطل كما في قصة منتهى النجاح في مجموعته عنبر ٧[١] أو حلاوة السكر في مجموعته أكل عيش [٢] حيث يحكي بلسان دكتور شارحا التفاصيل لتي تجري في عيادته من حضور المرضى والكشف عليهم وخلافه..أو حاكيا على لسان مريض من مرضاه كما في قصة لا احد في مجموعته عنبر ٧ " إلى جوار فراشي تراصت عشرات زجاجات من أقراص الوميتال والفيرونال " [٣] أو في قصة مدام س في مجموعته شلة الأنس " اخرج من جيبه حزمة من الروشتات القديمة المهملة .... إنها خبرة أربعة عشر عاما عن مرض لا يبرأ روماتيزم في القلب في الصمامات لا علاج له "[٤]

وأقرأ معي في قصة قتيل بدون قاتل في مجموعته الذين ضحكوا حتى البكاء " وأي غرابة في وجود أمبولة مورفين عند رجل مثل منصور الجبيلي مصاب بالتهاب مزمن في الكلى يعاوده المغص الكلوي بين حين وآخر "[٥] ..

وهكذا سارت الأمور لدى د/ مصطفى محمود في أعلب قصصه القصيرة لقد حمل عيادته و ألآلاتها وأسماء الادويه ووزعها على أبطال قصصه من مرضى وأطباء وحتى المشرحة لم تتوارى عن قصصه ..

فليس غريبا أن يخرج القارئ لقصصه بثقافة متواضعة في أسماء الأدوية وهو يرى صيدلية متنقلة في حنايا هذه القصص [٦] ....

ويبدو إن إخلاص د/ مصطفى محمود لتخصصه في الطب – وهو الأمراض الصدرية والقلبية – طاغيا بحيث أصبحت هذه الأمراض هي محور تلك القصص شارحا فيها أعراضها واسمع معي هذه العبارات

" كان التشخيص سرطان الثدي من الدرجة الثانية"[٧]

" يقول الباثولوجي انه كان بها سرطان وليد في أول مرحلة "[٨]

" وحينما تيقظ في صباح اليوم التالي كانت قدماه وارمتين وكان الورم المائي يسري إلى أعلى ساقيه ببطء وكان معنى هذا انه يعاني نوبة قلبية حادة"[٩]

فروع أخرى

ولم يكن تخصصه في الطب فقط فقد انضمت إليه باقي فروع الطب الأخرى التي تخدم القصة كما تلاحظ في قصة حكاية الدكتور اسكندر في مجموعته نقطة الغليان التي يتحدث عن ردود الفعل والأفعال المنعكسة في الطب النفسي [١٠] ويحدث في بعض القصص أن يشرح الموضوع بشكل علمي محض بحيث انك تحس انك أمام مقال علمي اقرب منه كعمل أدبي مرتكز على العلم واسمع معي " لو أمكن استنساخ الجنين البشري بهذه الطريقة فانه يمكن الحصول على الأجنة المتماثلة ...سيظل الاستنساخ CLONNING حلم العلماء لسنين"[١١] وأما عناوين القصص فهي الأقرب إلى الطب بكثير ..

حكاية الدكتور اسكندر ، دواء منوم، ساندويتش مخ، خانكة[١٢] .....الخ .

وجوه العلم الأخرى

وبعيدا عن الطب استثمر د/ مصطفى محمود إطلاعه على العلوم في التعابير التي أراد أن يميز بها قصصه وهذا ليس غريبا على رجل العلم في هذا الزمان..

فتجد الفيزياء والكيمياء وعلوم الأحياء والتاريخ متراصة في قصص د/ مصطفى محمود بشكل ملفت للنظر وتجده يفضل التعبير العلمي بديلا عن الأدبي في توضيح بعض الأحوال النفسية لشخصيات قصصه ففي قصة ذرة اليورانيوم – التي يشرح فيها علاقة متوترة بين رجل وزوجته وتنامي هذا التوتر بينهما – يختتم القصة قائلا" و انسحق الجبروت بالهوان كما تنسحق المادة بالمادة المناظرة وتتبدد في فضاء الكون ، وانفجرت ذرة اليورانيوم " [١٣]

وفي قصة نهاية شبح التي تختتم بهروب الابن الثالث بالنقود إلى الصحراء الغربية (نفس الصحراء التي ذهب إليها د/ مصطفى محمود في مغامرته الغابة) يمزج بين ما شاهده في تلك الصحراء وعلوم الأحياء والطب فيقول " انه يعلم ماذا ستفعل لدغة الطريشة (اسم ثعبان) من ثعبان بهذا الحجم الذي يراه..... يبدأ السم يسري في دمه ليصل إلى مراكز التنفس ويصيبها عضلات التنفس بالشلل"[١٤] وغيرها الكثير مما نشاهده في قصصه....

العلمية المحضة

وكأمر طبيعي بعد هذا كله أن نجد لمصطفى محمود قصة تتخذ العلم محورا لها وليس تطعيما شكلي كما في القصص المشار إليها سابقا بما نصفه أدب الخيال العلمي فكانت أولى رواياته العلمية رواية العنكبوت التي "تندرج تحت هذا اللون من القصص الذي يعرف بالقصص العلمي "[١٥]وقيمتها- أي هذه الرواية – إنها " فاتحة لهذا اللون القصصي في أدبنا العربي "[١٦] وهذا اللون يحتاج إلى ثقافة علمية صحيحة إلى جانب الموهبة الأدبية ومن يجمع بين هاتين الميزتين مثل د/ مصطفى محمود ؟

" تدور أحداث هذه الرواية حول بطلين رئيسين الأول هو الدكتور داود صاحب المذكرات التي تكشف أحداث الرواية أما الآخر فهو راغب دميان المريض الذي تدور حوله الأحداث"[١٧]

وفكرة الرواية معتمدة علميا على دور النخاع المستطيل في المخ الذي يفترض د/ مصطفى محمود انه يقوم بدور التوليفة العصبية التي تمكن المخ من تجميع الأصوات مثل الراديو " وخلاصة التجارب انه يستطيع أن يسلط على الإنسان أشعة معينة ويحقنه بسائل معين فيتحول

الإنسان الواحد إلى أكثر من واحد ويتمدد في مجرى الزمن وتيار التاريخ ليعيش أكثر من حياة وفي أكثر من عصر "[١٨] رواية استفاد د/ مصطفى محمود من تخصصه في الطب وعلوم الفيزياء وتحت تأثير فكرة التناسخ الهندي التي يقول عنها " وسيطرت علي فكرة التناسخ مدة طويلة وظهرت في روايات لي مثل العنكبوت والخروج من التابوت"[١٩] وتظهر هذه الرواية المزج الجميل بين هذه العلوم....

أما روايته الأشهر فهي رجل تحت الصفر والتي فازت بجائزة الدولة المصرية في عام ١٩٧٠م وتدور أحداثها بعد مائة عام من كتابتها كما نقرأ في أولها " صباح السبت أول الأسبوع أول يناير بداية شهور السنة عام ٢٠٦٧ "[٢٠] وقبل أن نلج إلى هذه الرواية أريد أن أوضح أن ما ذهب إليه الكاتب جلال العشري في تعليقه على الرواية حيث يقول" عام ٢٠٦٧ إشارة إلى عام النكسة كان عاما فاصلا بين عصرين بل بين حضارتين ، حضارة الطائرة وحضارة الصاروخ"[٢١] ليس صحيحا لأنه يفترض أن الرواية كُتبت في عام ١٩٦٧ أي عام النكسة وهي في الأصل طُبعت في عام ١٩٦٦ م [٢٢] أي قبل النكسة بعام فليس لها أي علاقة بالنكسة من قريب او بعيد كما انه ليس هناك أي إشارة لأحداث النكسة في الرواية إذ تتمحور حول تجربة رهيبة للدكتور شاهين في التحول إلى إشعاع يستطيع اختراق أي المجالات ومنافسة الدكتور عبد الكريم له في حب روزيتا التي اختارت الدكتور شاهين وتأثير ذلك على مجريات الأحداث التي صاغها د/ مصطفى محمود بحبكة متقنة حيث جمع بين البعد الاجتماعي والتركيز على الأمور العلمية كالاستنساخ والنسبية والداينميكا الحرارية واسمع معي بداية الرواية " في مقعدين متقابلين جلس الدكتور شاهين والمهندس عبد الكريم كل واحد منهما يبدو كأنه نسخة من الآخر وكأنهما توءمان مع أن اولهما مصري والثاني عراقي وكذلك كان ركاب الصاروخ نسخا متشابهة من صورة واحدة وكأنهم أخوة أشقاء.."[٢٣]

فظهور الاستنساخ كفكرة علمية محضة لدى د/ مصطفى محمود في زمن كتابة الرواية – ١٩٦٦ م- هو الإبداع الحقيقي حيث لم تتم أول تجربة على الاستنساخ إلا في أوائل الثمانينات على الضفادع والحشرات.. ويبدو إن اطلاع د/ مصطفى محمود على بدايات هذا العلم هو الذي أمده بهذا النفس..

الختام

الرؤية العلمية للـ د/ مصطفى محمود كانت ذخيرته في قصصه القصيرة أو رواياته وجعلته مميزا عن غيره من الكـتـاب ولكن مما يؤخذ عليه في ذلك تناثر الأسماء الطبية بشكل ملفت

كأننا أمام روشتة علاج أكثر مما هي قصة ومع هذا تظل حقيقة بناء د/ مصطفى محمود اول لبنة لأدب الخيال العلمي في أدبنا العربي هو الانجاز العظيم الذي قدمه للقصة والرواية العربية حتى اليوم بحيث أنار الطريق لمن تلته من أقلام تبنت هذا النوع من الأدب كـنهاد شريف ود/ نبيل فاروق و رؤوف وصفي وغيرهم....

الهوامش والمراجع:

---

(١) د/ مصطفى محمود / عنبر ٧ ص١٤٠
(٢) د/ مصطفى محمود / أكل عيش ص ٩١
(٣) د/ مصطفى محمود / عنبر٧ ص ٨٤
(٤) د/ مصطفى محمود / شلة الأنس ص٦٩
(٥) د/ مصطفى محمود / الذين ضحكوا حتى البكاء ص ١٨
(٦) انظر شلة الأنس ص٧٧- ٧٨ وص ٧٨ ، أعمال صالحة جدا ص٢٧ وص٢٩ .. وغيرها
(٧) د/ مصطفى محمود / نقطة الغليان ص٥٩
(٨) نفســـه ص٧٠
(٩) د/ مصطفى محمود / شلة الأنس ص٧٥-٧٦
(١٠) د/ مصطفى محمود / نقطة الغليان ص٥٠
(١١) د/ مصطفى محمود / الذين ضحكوا حتى البكاء ص٨٩
(١٢) إحدى مستشفيات القاهرة في الخمسينات..
(١٣) د/ مصطفى محمود / نقطة الغليان ص ٨٦
(١٤) د/ مصطفى محمود / الذين ضحكوا حتى البكاء ص ٤٣
(١٥) جلال العشري / مصطفى محمود شاهد عصره ص١٥٠
(١٦) نفسه ص١٥١
(١٧) نفسه ص ١٥٤
(١٨) نفسه ص١٥٧
(١٩) د/ مصطفى محمود / رحلتي من الشك إلى الإيمان ص ١٤
(٢٠) جلال العشري ..مرجع سابق ص ١٧٦
(٢١) نفســـه...
(٢٢) روبرت ب.كامبل / أعلام الأدب العربي المعاصر ص١١٩٦
(٢٣) د/ مصطفى محمود / رجل تحت الصفر ص ٣

***

مع تحيات

مدونة عيون المعرفة

http://knoweyes.blogspot.com